

علم الجغرافيا بين التيه والتعسف

أ.د. باسم عبد العزيز عمر العثمان

جامعة البصرة - كلية الآداب

ملخص :

بعد انطواء قرنين من الزمان على تثبيت - الجغرافيا - كعلم له أهدافه ومناهجه ومدارسه وأساليبه ، يفتح هذا البحث صفحات تلك الفترة التي تحمل بين طياتها ، بعض التحديات التي واجهت علم الجغرافيا ، وفرضت عليه سمات معينة حملها باحثوا هذا العلم وعلماءه وسادت آنذاك والآن ، وما زالت ، وهي في مجملها اتسمت بالتيه تارة ، والاستبداد تارة أخرى ، لذلك فان البحث يسعى إلى التوقف عند تلك الحالات وتحديد مدى تأثيرها على مسيرة علم الجغرافيا ومشواره العلمي .

وقد خلص البحث إلى أن تلك الحالات قد أخذت من علم الجغرافيا مأخذاً ولا تزال ؛ بسبب ما يحمله بعض علماء هذا العلم وأبنائه من أفكار وأراء سعوا إلى إعلانها وتطبيقها بعيداً عن التوازن والعقلانية ، أو أنهم قد انشغلوا في مجادلات حول بعض القضايا التي لم يتم التوصل فيها إلى أراء محددة وواضحة . ومع هذا ، فقد أفرز علم الجغرافيا تلك الحالات ، وسار في مشواره مواكباً التطورات العلمية التي تسود العالم حالياً ، ومنها مجالات التطبيق الحياتية وتسييل الأضواء بجرأة على مشكلات الإنسان وقضاياها من وجهة النظر الجغرافية .

Geography Between Vagueness and Abusiveness

Prof. Dr. Basim Abdul Aziz Omar AL-Othman

Dept of Geography

college of Arts

University of Basra

Abstract :

After the folding of tow centuries since the establishment of (geography) as a science which has its own aims , methods , schools and techniques , this paper opens the pages of that period . They carry among their folds some of the challenges which faced geography as a science and imposed on it some characteristics which the researchers and scientists of this science held and which have been predominating . The whole of them were sometimes characterized by vagueness and sometimes by arbitrariness . Therefore , the current research attempts to consider those cases and to define their impact on the course of geography as a science and its scientific progress .

The research has come to a conclusion that those cases have caused geography some default because of the opinions and concepts its scientists and men bear and which they attempt to declare and practice far away from balance and rationality . They were otherwise busy in debates on some issues which did not come to specific and clear views . Nevertheless , geography has discarded those cases and continued its progress coping with the scientific developments predominant in the world at present, including application in life and shedding light daringly on man's problems and issues from a geographical point of view .

المقدمة :

ان سبر أغوار أي علم يجعلنا أمام حقيقة ، ألا وهي أن أبناء العلم وعلماءه يكونون السبب في تخافت الأضواء من حوله . ويأتي ذلك من خلال الأقنعة التي ترتدي من قبلهم بلباس التيه والضيايع تارة ، أو بلباس التعسف والإستبداد تارة أخرى . من هنا فأن هاتين الحالتين عند توالي ضرباتهما على أي علم ستكونا السبب في هدمه وضياعه .

ومن خلال تتبع مسيرة علم الجغرافيا خلال فترات تثبيته كعلم وإلى الآن نرى بأنه عاش هاتين الحالتين حيث بدأت تنخر فيه حتى بدا يترنح تحت الضربات الموجعة لهما ، إلا أن المساند التي توضع من هنا وهناك قد نشطت من المسيرة الفكرية الجغرافية حتى أستفاق ليواجه تحدي المستقبل .

ومن الطبيعي أن تثير هذه الحالة جانباً من الحيرة والقلق حول مستقبل هذا العلم بين المهتمين به خاصة وأن تحديات المستقبل تحمل بين طياتها الكثير من المستجدات التي يأتي بها العلم الحديث في جميع الميادين ، والتي ستأتي على كل ما هو أضعف عوداً وتؤدي إلى نخره وسقوطه بسرعة رهيبه ، لذلك لا بد من إبراز ما سيكون عليه علم الجغرافيا في ظل تلك التحديات ، وهل ان هاتين الحالتين ستبقى ملازمتين له ؟ ، ومدى قدرته على الفكاك منهما ، خاصة في ظل تشاؤم بعض الجغرافيين وتخوفهم على علم الجغرافيا من أن يتفسخ أو يضيع في أحضان التحول الذي يساير روح العصر .

وقد يرى البعض أن في الأمر تهويلاً ومبالغة ، وأن ربانة علم الجغرافيا لا زالوا يسيرون بالأسطول إلى مينائه بسلام رغم العواصف الهوجاء . ولكن يبدو أن لهذا الخوف ما يبرره حيث أن شذرات الحاضر المرتبك تجعل الخوف من هجوم المستقبل المشوه مما لا يمكن إستبعاده .

لذلك ترددت قليلاً حال شروعي في إستخدام كلمتي التيه والتعسف كعنوان لهذا البحث ، وكان سبب التردد هو : هل نجد بين جنبات العلم والعلماء

من يحمل هاتين الحالتين ليخرج بهما ، ونجعل من نتائجهما ظاهرة جديرة بالتوقف والمتابعة ؟ . من هنا فإن البحث يهدف إلى تتبع مسيرة علم الجغرافيا خلال القرنين الماضيين (التاسع عشر والعشرين) وتقديم صورتين أولهما عن التيه .. وإلى أين يتجه بعلم الجغرافيا . والثاني عن استثارة علم الجغرافيا وما ينجم عن ذلك من حالات التعسف . لذلك ، سألج من خلال هاتين الحالتين ، لكشف بعض السمات التي تمكنت من علم الجغرافيا خلال مشواره والتي حملت ما يمكن اعتباره شهادة على القرنين التي عاشتهما .

أولاً - ألتيه .. إلى أين ؟

يشكل عدم وجود حدود واضحة بين ما هو جغرافي وما هو غير جغرافي ، أحد أهم ملامح التشتت والتيه في الوقت الراهن . ومن البديهي أن هذه الحالة تؤدي إلى اختراق الجغرافي للعلوم الأصولية وهي الينايع التي تستقي منها الجغرافيا حوافز العمل والبحث . فالنظرة الجغرافية ترتبط دائماً بين حس الجغرافي ومنهجه ومفردات العلوم الأصولية ، فالجغرافيا تبدأ عند إنتهاء مسيرة العلوم الأصولية ونتائجها حيث يتحرك الجغرافي حيثئذ بعد أن أحسن استيعاب نتائجها وأخذ منها بمهارة ، لكي يبنى عليها ، أو لكي يدخلها في نسيج البحث الجغرافي ، ومن ثم يصاغ البحث العلمي العميق في أقوى صوره وأكثرها شمولاً ، والذي من المفترض أن يبنى على الأسس العلمية المتوازنة (المتعادلة) .

وبعد تطواف بصير بنماذج من البحوث التي تحسب على أقسام الجغرافيا ، نصل إلى استنتاج بأن بعض هذه البحوث قد كان أصحابها أسارى العلوم الأصولية ينهلون من منابعها بلا تروي وحدود رادعه ، بل إنه قد غاص فيها حتى تلبدت أمامه السبل فراح يتخبط فيها ، أو أنه لجأ إلى اعتماد الأساليب المستخدمة في العلوم الأصولية نفسها - وحالفه الحظ في بعض الأحيان - فأنتهى إلى النتائج التي انتهت إليها ، وهذه النهاية في حد ذاتها أفقدت الجغرافيا هويتها ومبررات وجودها ، كعلم له موضوعه ومنهجها وأهدافه الخاصة . في حين يقتضي العمل على صوغ بحوث

علمية ذات منهجية على فهم الظواهرات الجغرافية ومشكلاتها وبمشروعية التوازن العلمي . إلا أن هذا لا يعني تحجراً وجموداً وعدم قابلية للتغيير ، بل هو نفي صريح لذلك ، إنه تأكيد على انفتاح الجغرافي وتحرره من هيمنة وأسر العلوم الأخرى ومناهجها والتي يجب التعرف عليها بدقة أو التيقن من ملامحها دون الانجراف نحوها من غير هوادة .

إلا أن هذه الدعوة لم تجد آذاناً صاغية من قبل الجغرافيين الذين انساقوا في العقود الأخيرة وراء درب العلوم الأصولية في الإتجاه نحو التخصصات الدقيقة ، الأمر الذي أدى إلى ظهور فروع جديدة أخذت تتكاثر بسرعة شديدة ، وبأسماء غريبة لبعضها : كجغرافية النمل والنحل ، وجغرافية الجوع والفقر ، وجغرافية الجريمة والدعارة وجغرافية الملاريا والبلهارزيا ، وجغرافية التحليل والتركيب ، وجغرافية الأمراض والجغرافية الصحية ، وجغرافية الفلوركلور والأمثال الشعبية ، وجغرافية الطقس والوهم ، وجغرافية الشغب والإرهاب ، وجغرافية الفكر ، وجغرافية الأطفال ، وجغرافية التعليم ، وجغرافية بيع المفرد ، وجغرافية الخدمات ، وجغرافية الانتخابات ، وجغرافية المشاكل الاجتماعية ، وجغرافية الرفاه الاجتماعي ، والجغرافية السلوكية ، والجغرافية التطبيقية ، والجغرافية الستاتيكية ... وهذا ما حدى بأحد الجغرافيين إلى القول أن هناك جغرافيات أو تخصصات جغرافية بعدد الجغرافيين (١) . كما أن هذا التشطي الكبير الذي حصل في الإتجاهات وتشعبها جعل كلمة الجغرافيا لا تنفي بالغرض عند البعض ، لذا استعويض عنها بجغرافيات لتضم مجموعة من الاهتمامات الجغرافية المشتركة (٢) . ويرى (هاجيت) بأن توقعات

(١) صفوح خير ، الجغرافيا - موضوعها ومناهجها وأهدافها ، الطبعة الاولى ، دار

الفكر ، دمشق ، ٢٠٠٠ ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) مضر خليل عمر الكيلاني ، الاطفال في الفكر الجغرافي المعاصر ، جامعة ديالى ،

٢٠٠٦ ، ص ١ .

المستقبل بالنسبة للجغرافيين هو الاتجاه نحو بروز مزيد من التعريفات الجديدة للتخصصات الجغرافية .

ولا شك في أن هذا الاتجاه نحو التخصصات الجغرافية الدقيقة يرجع في أصوله إلى أولئك الذين دخلوا الجغرافيا من الأبواب الخلفية ، ومعظم أولئك من أبناء الجيل الأول من الجغرافيين الذين لم يكونوا جغرافيين بل كانوا من المتخصصين أصلاً في العلوم الأصولية من أمثال (ريختر وفنك وديفز) الذين كانوا جيولوجيين ، أو (لوبلاي ودمولان) الاجتماعيين ، أو أن هذا الاتجاه جاء نتيجة لتحول الجغرافيا من علم مستقل وعام إلى نظام متنوع من العلوم الجغرافية ، حيث تفاعلت الفروع وارتبطت مع بعضها البعض ، ومع غيرها من العلوم القريبة الصلة بها ، فتشعبت وأنتجت خليطاً متشابكاً من المعلومات المركبة ذات الميل الواضح إلى تخصص أعمق وأدق (٣) . والحال كذلك مع الذين لم يكن لهم ارتباط أو صلة بالجغرافيا ، ولكنهم قد يضيفوا من خلال جهودهم البحثية العلمية فرعاً آخر للجغرافيا - كما فعل عالم النفس الثقافي (ريتشارد نصيب) وكتابه (جغرافية الفكر) والذي يكشف فيه تمايز أنماط التفكير وتباين قواعده وقوانينه بفعل ثقافات هي حصاد تفاعل ايكولوجي بين الانسان / المجتمع - البيئة ، أي بسبب تفاعل الإنسان - المجتمع من أجل صناعة وجوده في بيئته الطبيعية والثقافية على مدى بعدي الزمان والمكان (٤) .

(٣) محمد عبد الرحمن الشرنوبى ، الجغرافيا بين العلم التطبيقي والوظيفة الاجتماعية ، رسائل جغرافية ، العدد (٣١) ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، جامعة الكويت ، ١٩٨١ ، ص ١٢ - ١٣ .

(٤) شوقي جلال ، ما بعد الفكر الغربي ، مجلة العربي ، العدد (٥٨٣) ، وزارة الاعلام ، الكويت ، ٢٠٠٧ ، ص ٢٧ - ٢٨ .

أما التيه الآخر ، فهو عدم صياغة تعريف موحد للجغرافيا يحدد وضعها بين العلوم التجريبية والإنسانية ، لذلك حين أراد (روجر متشل) في أواخر الستينات أن يحدد التعريفات التي صيغت بها الجغرافيا وجد ما يربو على اثني عشر تعريفاً - كان ذلك منذ نحو أربعة عقود - والآن من المؤكد أن الرصيد الرقمي لتعاريف الجغرافيا قد زاد عن سابقه ، وهو أمر يدل على عدم وجود حدود واضحة وصارمة لمجال العلم ، وعدم وضوح أو عدم الاتفاق على غايات العلم وأهدافه ومن ثم مكانته بين بقية العلوم ، هذا فضلاً عن الانتقادات التي وجهت إلى تلك التعاريف والتي أظهرت عجزها عن تحقيق الوحدة الجغرافية كيانا وحدوداً ومنهجاً . لذلك فأن الفشل في التوصل إلى تعاريف منطقية للجغرافيا متفق عليها يؤدي إلى تزايد التعاريف الفردية التي تقوي القول المأثور : (الجغرافيا هي ما يكتبه الجغرافي) (٥). من هنا فقد دعا الفرنسي (بياجييه) - الجغرافيا - إلى أن تتوارى لتفتح المجال لعلم جديد هو - علم المجال الجغرافي - بكل مكوناته المكانية والاجتماعية والنفسية . ولا يقتصر هذا التيه على علم الجغرافية الأم بل يمتد إلى أبنائها أيضاً - أي فروع علم الجغرافيا الطبيعية والبشرية - حيث أن عدم وضوح الرؤيا أمام الباحثين لمفاهيم وأهداف ومناهج وأتجاهات تلك الفروع ، يؤدي إلى تداخل بعضها مع الآخر ، بحيث يعتدي أبناء هذا الفرع على الآخر ، بحجة تقارب هذين الفرعين ، أو هامشية محتوياتهما ، وبالتالي يكون هذا الباحث ضحية عدم وضوح الرؤيا أمامه ، أو عدم التوجيه من قبل من يكبره مسيرة في هذا الاختصاص . ومن الطبيعي أن تشير هذه الحالة من الالتباس والغموض كثيراً من الانهيارات التي يتحمل وزرها الباحث ، أو من يقف وراءه موجهاً ومعلماً .

ويدب التيه في البعض إلى الحد الذي يتهم الجغرافيا بأنها تسير في جملة موضوعات تفتقد الترابط ، ويذهب هذا الرأي الحائر (التائه) إلى أن الجغرافيين في

(٥) شاكر خصبك ، تطور الفكر الجغرافي ، الطبعة الثانية ، مكتبة الفلاح ، الكويت

حاجة إلى تأهيل أنفسهم وإثراء فكرهم تأهيلاً عميقاً قبل أن يتفرغوا للاجتهاد الجغرافي . بل يذهب هذا الرأي إلى أن الجغرافي لا يمكن ان يكون جغرافياً قبل أن يعرف ما هو المطلوب منه ؟ وما هي حدود اجتهاده ؟ وما هو الدور أو الأداء الوظيفي لمهمة الجغرافي (٦) ؟ .

وفي مرحلة التحول التي عاشتها الجغرافيا من الحديثة إلى المعاصرة احتدم الجدل والنقاش الشديدين وتصاعد حول تعريف جامع عن الجغرافيا المعاصرة . ويبدو أن هذا الجدل قد وضع بعض الجغرافيين في أحضان التشاؤم إلى حد بعيد . كما أن هذا التحول قد افقدها التوازن إلى حد الخلل بين الشقين الطبيعي والبشري ، والذي كان لصالح الشق البشري .

ومن ناحية أخرى ، فإن تقسيم الجغرافيا إلى طبيعية وبشرية قد أدى إلى احتدام الصراع بين الجغرافيين واتسعت شقة الخلاف بينهم حتى كاد أن يصبح لكل قسم مناهجه وأهدافه مما هدد وحدة العلم وضياح شخصيته المستقلة . وقد استنكر فريق هذا التقسيم وحمل عليه ؛ لأنه لا يستند إلى أساس منطقي مقبول ومقنع . فقد أشار إلى هذه الخطورة الجغرافي البريطاني (هيربرتسون) حينما وصف هذه الظاهرة بأنها جريمة قتل علمية (٧) . في حين أكد (دولا بلاش) بأنه لا سبيل إلى وحدة الجغرافيا بغير الأساس الإقليمي ، وأن هذه الثنائية ، أي إلى - طبيعية وبشرية - ليست الوحيدة ، فهناك ثنائيات أخرى معروفة مثل : الجغرافيا الأصولية والإقليمية ، وثنائية الحتمية والإمكانية ، وثنائية الوصفية والإحصائية ، وكلها في الحقيقة ثنائيات زائفة (٨) . بينما فضل فريق آخر تقسيماً جديداً يقوم على أسس ورؤية جديدة . في حين فضل فريق ثالث الإقلاع عن التقسيم وتفرغ الجغرافيا إلى دراسة

(٦) صلاح الدين الشامي ، الفكر الجغرافي - سيرة ومسيرة ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٩٩ ، ص ٤٧٨ .

(٧) صفوح خير ، مصدر سابق ، ص ٣٦ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٣٨ .

الموضوعات الجغرافية دونما حاجة لمسألة التقسيم التي تمزق كيان الجغرافيا (٩) .
 بينما اعتبر آخرون حصر بعض الجغرافيين لأهتماماتهم في جوانب طبيعية من الجغرافيا أو في جوانب بشرية دون وعي بالحاجة إلى تكامل العلم ، ما هو الا مزلق خطير ينزلق إليه من يدرك أهمية هذا التكامل في النظرة الجغرافية ، وان هذه الثنائية في تقسيم اهتمامات البحث الجغرافي أفادت نظام العلم ، ووفرت معايير التقسيم (١٠) . في حين اعترض آخرون على الجغرافيا أن تضم بين جنباتها الجغرافيا الطبيعية ، على اعتبار أنها ليست دراسة علاقات ايكولوجية ولا تتعرض بالضرورة للإنسان ، ولذا فليس هناك ما يفرض دراستها على الجغرافيا منطقياً . وبمعنى آخر تصبح الجغرافيا هي الجغرافيا البشرية بينما تخرج الطبيعية طريدة من الجغرافيا . إن هذه النهاية المأساوية للجغرافيا توصل إليها الجغرافيون اليابانيون وأعلنوا بوضوح أن الجغرافية الطبيعية لم تعد جزءاً من الجغرافيا ، وان مكانها في العلوم الأخرى . ان هذه الطفرة الفلسفية هي على النقيض تماماً من طفرة الجيوفيزياء التي نبذت الإنسان تماماً من الجغرافيا (١١) .

إن عملية فصل الجغرافيا إلى دراسة طبيعية وأخرى بشرية أدت إلى ظهور ما يسمى بالازدواجية . وهي من أهم المشاكل التي واجهتها - ولا تزال تواجهها - الجغرافيا ، علاوة على كونها غير عملية . إذ ليس من السهل فصل جميع العوامل في أية وحدة مكانية نظراً للتداخل والتشابك الشديدين فيما بينهما ، كما أنه ليس بالإمكان فصل العوامل الطبيعية عن العوامل البشرية كأن نفصل بين النبات الطبيعي والتربة ، وبين النقل والممرات المائية ، والبنية الحضرية وأشكال الأرض التي تقوم عليها . ولذلك فانه ليس من الحكمة في شيء تقسيم الدراسة إلى عوامل طبيعية

(٩) صلاح الدين الشامي ، مصدر سابق ، ص ٤٨٤ .

(١٠) محمد حجازي ، جغرافية الأرياف ، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربي ،

الكويت ، ١٩٨٢ ، ص ٢٣ .

(١١) صفوح خير ، مصدر سابق ، ص ٤٥ - ٤٦ .

وأخرى بشرية طالما أن الفصل بينهما يكاد يكون مستحيلاً ، كما انه ولنفس السبب لا يمكن للدراسة أن تقوم على أساس العلاقة أو التفاعل القائم بين العوامل دون فصلها إلى عوامل طبيعية وأخرى بشرية (١٢) . ويدو أن توجه الأجيال الجديدة من الجغرافيين لتوجيه تخصصاتهم إلى التركيز على موضوعات محددة مستخدمين مناهج البحث الكمية وغيرها من وسائل البحث الجغرافي ومكثفين دراساتهم التطبيقية التي التقت عندها التزاماتهم البحثية ، يعتبر في حد ذاته تقارب في توجه الجغرافيين الطبيعيين والبشريين بعد التفتت الذي حدث في تشعب الفروع الأصولية في الجغرافيا ، وبذلك كانت الجغرافيا التطبيقية بدراساتها البيئية صلة الوصل بين فروع الجغرافيا الطبيعية والبشرية وأعادت التوحد بينهما (١٣) .

من جانب آخر هناك من يرى بأن الجغرافيا الجديدة بتركيزها على التقنيات الإحصائية يمكن اعتبارها - من عدة وجوه - داخلية ضمن ما يسمى بالتكنولوجيا أكثر من كونها علماً . وقد قاد هذا الأمر إلى إطلاق عدة تساؤلات تحمل بين طياتها الحيرة والتهيه منها : هل أن الدراسة الجغرافية وبخاصة البشرية أصبحت جزءاً من الدراسات التي يطلق عليها التكنولوجيا الاجتماعية ؟ وهل مثل هذه الدراسة قادرة على تفسير المشاكل والقضايا الاجتماعية ؟ وهل مثل هذه الدراسة قادرة على تفسير المشاكل والقضايا البشرية تفسيراً معقولاً ومقبولاً ؟

(١٢) محمد علي عمر الفراء ، اتجاهات الفكر الجغرافي الحديث والمعاصر ، رسائل جغرافية ، العدد (٤٩) ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، جامعة الكويت ، يناير ١٩٨٣ ، ص ٢٧ .

(١٣) علي علي البنا ، الجغرافيا التطبيقية - المضمون - التطور - المنهج - مع نماذج دراسة للتربة واستخدام الاراضي ، الطبعة الاولى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ٢٠٠٣ ، ص ٤٤ - ٤٥ .

وهل بالإمكان تطبيق أدوات التكنولوجيا ووسائلها على أعمال الإنسان وسلوكه كما هي مطبقة في العلوم الطبيعية (١٤) .

من ناحية أخرى، فإن سريان الاتجاه الوصفي في الجغرافيا ولقرون طويلة ، واهتمامها بكل ما هو فريد ، وتركيزها على مسألة التفرد ، قد حال دون إمكانية صياغة الفرضيات والقوانين (❖) والنظريات التي هي لب البحث العلمي ومحوره - رغم أن البعض يرى أن التفرد لم يكن حائلاً أو مانعاً منطقياً يحول دون اعتبار الجغرافيا علماً باحثاً عن القوانين - وهذا ما أفقدها الصفة العلمية التي لا تبدأ إلا عندما يبدأ التفسير ، وهذا يقود إلى تحديد الأنماط ، خاصة وإن الاتجاه الوصفي لا يقدم قواعد عامة عن التوزيع أو التباين أو الترابط ؛ مما يجعل الجغرافي عاجزاً عن إختزال آلاف الحقائق الجغرافية في إطارات ذهنية مبسطة ، وهذا من شأنه أن يحول الدراسة الجغرافية إلى ما يشبه المعاجم ودوائر المعارف الضخمة ، وبالتالي ينفي عنها الصفة العلمية . وهو اتجاه يتحمل وزره علماء الجغرافيا الذين أكدوا على الجانب الوصفي وابتعدوا عن الجوانب الأخرى التي تدخل في صميم المنهج العلمي . فقد وجد البعض أن الجغرافيا كعلم بحت أو كعلم من علوم الثقافة العامة لا بد أن يقف عند حدود المعرفة بالوصف والتفسير فلا يتجاوز هذا النطاق للتطبيق ، زاعمين أن في ذلك ما يغض من شأنها .

(١٤) محمد علي عمر الفراء ، التنظير في الفكر الجغرافي الحديث ، رسائل جغرافية ، العدد (١٣٩) ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، جامعة الكويت ، ١٩٩٠ ، ص ٤١ .

(❖) الجغرافيا - عند (هارتشورن) عندما تكتشف القوانين أو تطبقها فإن المرء لم يعد في ميدان الجغرافيا ، فكل مساهمة الجغرافيا عبارة عن حقائق .

المصدر : محمد علي عمر الفراء ، علم الجغرافيا - دراسة تحليلية نقدية في المفاهيم والمدارس والاتجاهات الحديثة في البحث الجغرافي ، رسائل جغرافية ، العدد (٢٢) ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، جامعة الكويت ، أكتوبر ١٩٨٠ ، ص ٤١ .

من هنا يمكن أن نستشعر نتائج استسلام الجغرافيا لتلك الملامح والسمات التي بدت واضحة في مسيرة الكثير من الجغرافيين وهي تكشف عن تيهها وضياها . وهذا يعني ان مسيرة الفكر الجغرافي ، التي تولى أمرها نفر من الجغرافيين قد تلبدت بتلك الملامح ، وانشغلوا بها خلال الفترة الماضية ، وألان . وما زالت . وهي في مجملها تمثل بعض العثرات التي يعمل حماة هذا العلم على تجاوزها ، والعمل على صياغة معالم جديدة لعلم الجغرافيا في ظل التطور العلمي الذي يشهده العالم والذي يستلزم منهجاً بحثياً جديداً وفكراً جديداً .

ثانياً - استشارة علم الجغرافيا ... الطريق إلى التعسف :

الجرعة العلمية الزائدة في اتجاه معين تسبب حالة من الاستشارة التي تفضي إلى التشدد والتعسف في الأفكار والآراء والتطبيقات . وقد رفع هذا الاتجاه ولا يزال من قبل الكثير من الجغرافيين ؛ ليجعلوه متكناً لممارسات أبعد ما تكون عن التوازن والعدالة . في حين ان علم الجغرافيا يعلن صراحة بأنه في إطار عدم التوازن لا يملك حرية الحركة .

ولقد سرت هذه الظاهرة في مراحلها الأولى خلال فترات تثبيت علم الجغرافيا كعلم له منهجه وطرائقه وأساليبه . فقد بنى فريق متشائم فلسفة مترممة كبلت إرادة الإنسان وسلمت زمام مصيره واستسلمت على هوى وإرادة ما يمليه الواقع الطبيعي على من حوله في الأرض ، لذلك فان هؤلاء قد بالغوا في دور البيئة الطبيعية وامنوا بحتميتها في كل فعل من أفعال الإنسان ، لذلك اطلق على أصحاب هذا الاتجاه بالاحتميون .

وقد تبنى هذه الآراء بعض الجغرافيين أمثال (ريتروهمبولت) رغم أن هناك من ينفي عن هذين الرجلين هذه الآراء ، ويقول بان أقوالهما لا يمكن أن تنهض كدليل على إنهما من أنصار الحتمية ومؤيديها - وراetzl في كتابه (جغرافية الأجناس) والتي تنسب إليه أفكار الحتمية وأبوتها ، - وتلميذته (الن سمبل) التي

بالغت في تلك الآراء حتى وصلت إلى حد التطرف وذلك في قولها (أن الإنسان عبارة عن حصيلة سطح الأرض ، وهذا يعني أن الإنسان ليس بطفل الأرض فقط ، بل أن الأرض قد تبنته وأوكلت إليه الواجبات ووضعت أمام المشاكل .. ولكنها في الوقت نفسه همست في أذنه بمعالم حلولها . بالإضافة إلى كتابات (بشل) في مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، و (فريدريك بلبيه) - والتي عدل عنها فيما بعد - كذلك فإن التأثير البيئي يظهر واضحاً ومتخذاً أهمية كبيرة في كتابات أساتذة المدرسة الجغرافية الفرنسية أمثال (فيدال دي لابلاش) في كتابه (أسس الجغرافيا البشرية) الذي نشر عام ١٩٢٢ ، و (جان برين) في كتابه (الجغرافيا البشرية) الذي نشره عام ١٩٢٥ ، و (ديمولان) الذي تعصب لفكرته إلى حد القول (بأن البشر لو بدأوا حياتهم من جديد في أحضان الأرض والواقع الطبيعي لسارت أشواطها المتوالية على نفس الدرب من غير أدنى تغيير) . كذلك تبنى هذه الآراء في بريطانيا (تيلور وفليور) ، وفي الولايات المتحدة (باروز ووليم موريس ديفز) ، بالإضافة إلى ظهور هذه الآراء في البلاد العربية ، وفي مصر تحديداً نتيجة لتأثر المصريين بأساتذتهم أمثال الدكتور محمد عوض محمد ومصطفى عامر والدكتور سليمان حزين ، وهؤلاء قد أخذوا هذا المفهوم عن المدارس الجغرافية البريطانية والفرنسية (١٥) .

ومن ناحية أخرى ، فقد تبنى فريق آخر فلسفة فكر متسيب ، حرر إرادة الإنسان ، وسلمه زمام مصيره لكي يتقدم مسيرة الحياة على هدي وإرادة أنتصاره على تحديات الواقع الطبيعي . ولا شك في أن التقدم العلمي والتكنولوجي الذي حققه الإنسان وتغلب به على كثير من المعوقات والعقبات البيئية وأستغلال الموارد الطبيعية ، قد هدم الأسس التي تقوم عليها النظرية الحتمية ، وأفسح المجال لقيام فلسفة جديدة أطلق عليها (الإمكانية) . ويعتبر (لوسيان فيفر) أول من أطلق

(١٥) محمد علي عمر الفراء ، علم الجغرافيا - دراسة تحليلية في المفاهيم والمدارس والاتجاهات الحديثة في البحث الجغرافي ، مصدر سابق ، ص ٤٩ - ٥٠ .

مصطلح الإمكانية ، إلا أن أسسها وأصولها وجدت عند (فيدال دي لابلاش) وسار عليها (جين برين) في فرنسا و (اسحق بومان و كارل ساور) في الولايات المتحدة الأمريكية .

ويبدو ان هذه المدارس التي انسأقت وراء هذه الآراء وتعصبت لها قد أخضعت الحقائق الجغرافية وطوعتها لصالحها ، لكي تستخلص منها النتيجة أو التفسير الحتمي أو الإمكاناني وقد روجت لقضية فكرية جوهرية ، وخاضت تجربة طويلة وصعبة في سبيل الترويج لها أو الدفاع عنها أو إكتساب مؤيدين لها . ومن الطبيعي أن معظم المؤيدين لهاتين المدرستين سواء في الفكر الجغرافي الحديث أو المعاصر ، قد طوعت معظم البحوث الصادرة آنذاك ، أو في الوقت الحاضر - في حالة وجود من يؤيد هاتين المدرستين - لصالح أفكارهم وآرائهم والتعصب لها .

ومن مظاهر الإسراف هو سريان الاتجاه الكمي وأمتداده حتى سيطر على معظم أجزائها إلى حد إبتعاد الشقة بينه وبين علم الجغرافيا وأهدافها ، وما تحيط به من رؤى تضبط منهجه ، إلا أن هذا لا يعني أننا ضد توظيف الطرق الرياضية والإحصائية في التحليل الجغرافي واستخدامها في كشف العلاقات المكانية ، فهذا الاستخدام يرفع من الصفة الموضوعية في البحث ، ويساعد على التخلص - ولو بدرجة ما - من الطبيعة الوصفية التقليدية في الأبحاث الجغرافية التي غالباً ما يدخل فيها الإجتهد الشخصي أو الذاتية بدرجة ملفتة للنظر .

من هنا فإن استخدام الكم المعلوماتي وما يحيط به من طرائق وأساليب إحصائية ورياضية يتطلب عقلاً رجباً لا يقفز فوق المنهج الجغرافي ولا يتجاهله ، ولا يفرض الاتجاه الكمي ويهبط به على قراء الجغرافيا قسراً وقهراً كوصفات ملزمة للتناول دون إعتبار للإرادة وردود الأفعال ويشهد على هذا القول سلسلة لا حصر لها من البحوث التي نشرت أو ستنشر في هذا البلد أو ذاك والتي يسعى أصحابها إلى تطبيق تلك الأساليب من غير وعي وإدراك لحدود ما هو جغرافي ، مما أعاد مبدأ الحتم الجغرافي ولكن بثوب جديد . لذلك فإن الباحث الجغرافي إذا كان

مدركاً لتلك الأساليب وقادراً على تطبيقها بصياغة مناسبة ، آخذاً في الاعتبار أسلوب العقلانية في الإستخدام ، مع ملاحظة حسنات وعيوب كل أداة إحصائية أو رياضية ، عندئذ يمكن أن يكون أسلوباً ناجحاً في تحديد وظائفها وأستخداماتها ، فضلاً عن معرفته الواسعة والدقيقة بأساليب التحليل الكمي ، والتدريب على الاستخدامات الصحيحة لتلك الأساليب وتطبيقاتها .

ويضاف إلى ذلك إتجاه آخر بدأ يبرز عند بعض الجغرافيين في السنوات الأخيرة ، وهو أن بعض الدراسات المقدمة من قبلهم بدأت تركز في المقام الأول على طريقة البحث ، أي أن (الوسيلة) بدأت تغلب على الغاية ، وهذا يعتبر تحولاً منهجياً أهتم بالوسيلة دون الأساس الفلسفي والمنطقي ، وهو أمر لا يمكن للموضوعية العلمية السليمة أن تتقبله أو ترضى عنه ، ويبدو أن سريان هذا الاتجاه كان نتيجة للاندفاع نحو أساليب المعالجة الرياضية والإحصائية واستخداماتها في البحث الجغرافي . في وقت ينبغي التروي والتمهل والنظرة الفاحصة إلى طبيعة المشكلة التي تدرس قبل اختيار المعالجة التي تناسبها .

بالإضافة إلى ذلك ، يمتاز المزاج العلمي عند الكثير من علماء الجغرافيا بأنه هلامي غير ثابت الملامح ، ولا يخضع لقواعد علمية بعينها ، وإنما يخضع لمزاجات شخصية ، يغلب عليها التعسف والغلو أحياناً ، لذلك فإن تلك الأجواء لا تصنع بيئة مناسبة لانطلاق المبادرات الفردية والقدرات الإبداعية الخلاقة ورعايتها حتى تؤتي ثمارها بحيث انعكست على قتل المواهب الفردية . من هنا فإن استسلام الباحث لهذه الظاهرة ، أدى إلى خسائر فادحة منها ضعف القدرة على الإبداع ، وإشاعة ظاهرة البحوث المتكررة والمشروعات المتشابهة . وإذا أضفنا إلى ذلك أن الكثير من الباحثين الجغرافيين هم تابعون وليسوا مبدعين في المنهج والأسلوب ، لذلك نرى أن أغلب نتاجهم هو عبارة عن سلسلة من الحلقات المتشابهة في صياغتها ولونها ، وعليه فإن الأمر يتطلب كتابة بحوث تستند على أرضية يتحرك فوقها الباحثون بوعي وإدراك ، وتصغي بمستوى من الرشد إلى النتاج العلمي .

الختام:

لقد استطاع هذا البحث بقدر ما تيسر للباحث من أفكار خلال مسيرته العلمية ، أن يلقي الضوء على حالتين خاضهما علم الجغرافيا وهو يتنقل بين أيدي العلماء والأبناء في بعض القضايا التي تمس العلم في مفهومه وأهدافه ومناهجه وأساليبه وكانت لهم مواقف إمتازت بالتيه تارة ، وبالتعسف تارة أخرى .

ورغم حالات التصدع التي أصابت جدار علم الجغرافيا نتيجة لتلك المواقف ، إلا أنه في ظل مرونة هذا العلم يمكن أن ننطلق به متجاوزين كثيراً من العقبات التي وضعت في طريقه ، ونسير مع الثورة العلمية وإنجازاتها ، وتطبيق ما نراه مناسباً منها ، مع الأخذ بمبدأ العقلانية والتوازن في التطبيق ، دون المساس بثوابت العلم وأهدافه ، مع التأكيد بأن الفكر الجغرافي الحر لقادر على الإبداع .

المصادر:

- ١- البنا ، علي البنا ، الجغرافيا التطبيقية - المضمون - التطور - المنهج - (مع نماذج دراسة للتربة واستخدام الأراضي) ، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ٢٠٠٣ .
- ٢- جلال ، شوقي ، ما بعد الفكر الغربي ، مجلة العربي ، العدد (٥٨٣) ، وزارة الاعلام ، الكويت ، يونيو ٢٠٠٧ .
- ٣- حجازي ، محمد ، جغرافية الأرياف ، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربي ، الكويت ، ١٩٨٢ .
- ٤- خصباك ، شاكر ، تطور الفكر الجغرافي ، الطبعة الثانية ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ٢٠٠١ .
- ٥- خير ، صفوح ، الجغرافيا - موضوعها ومناهجها وأهدافها ، الطبعة الاولى ، دار الفكر ، دمشق ، ٢٠٠٠ .
- ٦- الشامي ، صلاح الدين ، الفكر الجغرافي - سيرة ومسيرة ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٩٩ .

٧- الشرنوبى ، محمد عبد الرحمن ، الجغرافيا بين العلم التطبيقي والوظيفة الاجتماعية ، رسائل جغرافية ، العدد (٣١) ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، جامعة الكويت ، يوليو ١٩٨١ .

٨- الفرا ، محمد علي عمر ، علم الجغرافيا ... دراسة تحليلية نقدية في المفاهيم والمدارس والاتجاهات الحديثة في البحث الجغرافي ، رسائل جغرافية ، العدد (٢٢) ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، جامعة الكويت ، اكتوبر ١٩٨٠ .

٩- الفرا ، محمد علي عمر ، اتجاهات الفكر الجغرافي الحديث والمعاصر ، رسائل جغرافية ، العدد (٤٩) ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، جامعة الكويت ، يناير ١٩٨٣ .

١٠- الفرا ، محمد علي عمر ، التنظير في الفكر الجغرافي الحديث ، رسائل جغرافية ، العدد (١٣٩) ، الجمعية الجغرافية الكويتية ، جامعة الكويت ، يوليو ، ١٩٩٠ .

١١- الكيلاني ، مضر خليل عمر ، الأطفال في الفكر الجغرافي المعاصر ، جامعة ديالى ، ٢٠٠٦ .